

قراءة في بنائية رسائل الشيخ الإبراهيمي

أ. ناصر بوصوري

المركز الجامعي أحمد صالح. النعامة

الملخص:

تتناول هذه الورقة بالدراسة مجموعة من رسائل الشيخ لبشير الإبراهيمي كان قد وجهها إلى جهات مختلفة، وتبين من خلالها طريقة الشيخ في بناء رسائله كما تهتم بمضامين هذه الرسائل وأسلوب البشير الإبراهيمي في كتابة الرسائل.

Résumé

Cet écrit analyse un ensemble de correspondances de cheikh EL-BACHIR EL-IBRAHIMI envoyées à différentes destinations. Il s'est avéré à travers ces correspondances comment cheikh EL-BACHIR EL-IBRAHIMI construisait les soubassements de sa rédaction et dressait son architecture scripturale. De plus, cet article approfondit l'analyse des contenus de ces lettres et le style d'écriture de son auteur.

تتناول هذه القراءة جانباً مهماً من كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي، ولونا من ألوان الأدب ألا وهو أدب الرسائل؛ وهو لون عرف في الأدب العربي منذ القديم وازدهر وتطور، وكان له في صدر الإسلام مكانة خاصة، حيث كان أول اتصال للرسول - صلى الله عليه وسلم - عن طريق الرسالة مما يثبت أهمية هذا اللون من الأدب.

ورسائل الشيخ البشير الإبراهيمي كثيرة ومتنوعة ذات أسلوب راق في الكتابة، والتعبير فيها يرقى إلى تلك الكتابات التي عرفت أيام ازدهار الدولة العباسية بل ويتفوق على بعضها، بما للشيخ من دراية كبيرة بأسرار اللغة العربية وأساليبها

وهو أحد فرسان البلاغة والبيان في العصر الحديث بما كتب و ارتجل و خطب، وأبدع وألف وصنف.

وتحاول هذه الورقة البحثية معرفة مضامين تلك الرسائل التي كتبها الشيخ الإبراهيمي و وجهها إلى مختلف الفئات منها الأصدقاء والأعداء والطلبة والعلماء، فكان لكل رسالة خطابها الخاص، نعرف كيف خاطب كل واحد منهم وماذا قال له.

للإشارة فإن الرسائل موضوع الورقة البحثية هي رسائل تضمنها الجزء الثاني من كتاب نجل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي الموسوم بـ: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي الصادرة عن دار الغرب الإسلامي. وهي أربع رسائل اختلف متلقوها و اختلفت مضامينها؛ أولاً موجهة إلى الأستاذ إبراهيم الكتاني، وثانية أرسلها الشيخ البشير الإبراهيمي إلى الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة بتونس في ذكرى وفاة الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس، ورسالة ثالثة عبارة عن كتاب مفتوح وجهه إلى وزير الداخلية الفرنسي في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر، ورسالة أخيرة موجهة إلى الأستاذ والأديب والمؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني.

بداية أقول إن كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي للأسف الشديد لم تحظ بما يجب من العناية الكافية وهو الذي كتب عن كل شبر من أرضها ولو كلمة في جريدة أو كتاب أو احتفظت به أوراقه، وهي ربما كثيرة لم تر النور بعد، وهل يعقل أن تبقى كتابات أمير البيان العربي في المغرب العربي بشهادة الجهادية من العلماء والأدباء دون نشر أو مخطوطة تنتظر بعد مرور نصف قرن على رحيل صاحبها؟

ورغم انتماء الشيخ الإبراهيمي كما يقال إلى مدرسة الصنعة ،وقد ظل وفيا لها في كتاباته وخطبه،إلا أنه صاحب مدرسة خاصة يدبج رسائله وما يكتب بكل أناقة وبكل جرّية.

سوف أحاول أن أتحدث في ورقتي البحثية هذه عن فن أدب الرسائل في الأدب العربي باختصار شديد منذ ظهوره إلى أيامنا في محطات مقتضبة،أتناول بعدها مجموعة من الرسائل التي خطتها أنامل الشيخ البشير الإبراهيمي في مساحة زمنية امتدت ما بين سنتي خمس وأربعين وتسعمائة وألف (1945م) وسبع وأربعين وتسعمائة وألف (1947م) بالحديث عن بنيتها ومقارنتها بما عرف عن بنيات الرسائل في العصور المتقدمة وما حملته من جديد في بنائيتها،ثمّ الحديث عن مضامين هذه الرسائل واختلاف نوعية الأشخاص الذين وُجّهت لهم الرسائل.

الرسالة فن أدبي قديم قدم الأدب عرفته كل الشعوب والأمم،وفي تاريخ الأدب العربي صفحات جميلة عن هذا الفن،خاصة في فترة ازدهاره ونمائه في القرنين الثالث والرابع الهجريين،وغير خاف علينا أن الرسالة كانت أول اتصال للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعالم الخارجي حيث وجه عدة رسائل إلى ملوك الفرس والروم والحبشة واليمن،وكانت كل رسالة من تلك الرسائل لها بنائية خاصة بها،اختلفت من شخص إلى آخر.

وقد عرف أدب الرسائل تطورا كبيرا في مختلف العهود التي توالى على الدولة أو الخلافة الإسلامية، «فإنه لما آل الحكم إلى بني أمية وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطور شؤون الدولة الإسلامية؛أنشأ -ضمن ما أنشأ- ديوان الرسائل هذا الديوان الذي يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته

وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة في الأول هو الذي يملّي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثمّ يعرضها على الخليفة و كان أسلوب الرسائل حينها تغلب عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنع كما حدث ذلك لاحقاً وشهد فن الكتابة نقلة نوعية في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثمّ في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحيى الكاتب (وهو أول من أنشأ أسلوب الرسائل في الأدب العربي. قيل إنه كان يعلم الصبية قبل أن يشتغل بالكتابة في بلاط هشام بن عبد الملك، أشهر رسائله الرسالة إلى الكتاب) وقد عُرف عبد الحميد بالبراعة في الكتابة حتى غدا مضرب الأمثال، وقيل عنه: بدئت الكتابة بعبد الحميد. وما قيل عنه في فضله وتقدمه في ميدان أدب الرسائل: فتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد.»⁽²⁶⁾

ومنذ هؤلاء الكتاب خطا فن أدب الرسائل خطوات عملاقة، نال كتاب الرسائل حظوة كبيرة عند الخلفاء والأمراء والسلطين وتبوأ كثير منهم مراكز كبيرة في الدول حتى وصل بعضهم إلى أن يصير حاجب الخليفة وهي بمثابة رئيس الوزراء في عصرنا هذا.

غير أن هذه الصناعة الرائجة أصاب سوقها الكساد في عصور الضعف حتى غدت الرسائل ضرباً من التفنن في جمع الألفاظ و رصّها إلى بعضها، ثم ابتليت الأمة بعد ذلك باستعمار أو استعمار على رأي مولود قاسم - رحمه الله - بغرض ضعفت أثناءه الكتابة عموماً والرسائل بوجه أخص وعمّ هذا الضعف حتى كاد فن الترسل أن يمحي لولا بعض الأدباء الذين أبقوا على الروح فيه بفضل ما دبجته أقلامهم من روائع من أمثال أمير البيان الجزائري الشيخ البشير

الإبراهيمي، أما في راهنا اليوم فقد صارت كتابة الرسائل لا تخطر لبشر على بال بما أحدثته الثورة التكنولوجية في حياتنا من انقلاب كاد يذهب بكل جميل في حياتنا، فقد قضت أو كادت تقضي على فن كتابة الرسائل بما استحدثته من رسائل قصيرة sms تكتبُ على أجهزة الهواتف النقالة أو أخرى إلكترونية ترسل بالبريد الإلكتروني تصل من فورها للمرسل إليه، فتأتي باردة من الأشواق خالية من الأحاسيس، ولعل الحنين إلى تلك الأيام يذكي في نفوس عشاق الكلمة الجميلة قبسا أو جذوة فتعود كتابة الرسائل إلى سابق عهدها ويولد جيل يعيد إلى كتابة الرسائل ألقها فنرى جاحظا آخر وعبد الحميد الكاتب الثاني و إبراهيمي آخر وغيرهم من الذين منحوا حياتهم وجهدهم لهذا الفن وهذا الجنس الأدبي.

بنية الرسائل:

عرف في فن الترسل نوعان من الرسائل هما: الرسائل الإخوانية والرسائل الديوانية، وقد وضع المنظرون ضوابط معينة خاصة للنوع الثاني- الرسائل الديوانية- وتركوا الأول لا يخضع إلا لرغبة كاتبه في تدبيجه على الطريقة التي يهواها ويختارها لرسائله، وذكروا ما يجب أن يكون في بناء الرسائل الديوانية و رأوا أنه يجب أن تتألف من الأجزاء التالية:

- البسملة ، والصلاة على النبي، وعلى آله، وصحبه .
- ذكر المرسل، والمرسل إليه، والدعاء لهما .
- التحية والتحميد .
- البعدية .
- الحمدلة

- التصلية الصلاة و السلام على النبي.

-إيراد خطبة بما فيها من دعاء.

- ذكر مكانة كاتب الخطاب والدعاء له بالحماية.

- ذكر تأريخ الرسالة،وهذا يكون في بعضها.⁽²⁷⁾

أما الرسائل الإخوانية،فلم يشترط النقاد في صياغتها وبنائها شروطا محددة دقيقة وملزمة،وإنما «أطلقوا فيها العنان للكتاب للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم في غير قيد لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب.»⁽²⁸⁾

ورغم محاولات النقاد وضع قواعد ملزمة لكتاب الإخوانيات في أدب الرسائل إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع،يعبر عن ذلك أحدهم بقوله:« وقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية، ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم في دقة.»⁽²⁹⁾

و هذا ما جعل الترسل الإخواني أكثر جمالية وأكثر أدبية من الترسل الديواني وجعل رسائله «أدخل في الأدب،وأقبل للتخييل والصور البيانية،والصناعة البديعية،تحتل الاقتباس من المنثور والمنظوم،وتنافس الشعر في جل أغراضه.»⁽³⁰⁾

وهذا ما نلمسه في خطب و رسائل الشيخ البشير الإبراهيمي، ففيها من جودة العبارة وقوة السبك وجزالة التعبير ما يجعلنا نقول إن البشير الإبراهيمي أحد أئمة وأمرأ البيان في العصر الحديث بما خطت يميناه من روائع ستبقى شاهدة على باعه الطويل في ميدان النثر الفني.

بنية المقدمات في رسائل الشيخ الإبراهيمي:

مقدمات الرسائل أو استفتاحاتها أو مطالعها من أهم أجزاء الرسالة، وقد تناولها النقاد في القديم وأولوها أهمية كبيرة، لأنها أول ما تقع عليه عين المتلقي، وقد «حُصَّ الاستفتاح بالاهتمام لأنه أول ما يلتقط ويُلقَى، واشترط تنقيحه، وتجويد صياغته، ومطابقته للمعنى الوارد بعده، والعمل على تنويحه، لتوفير دواعي تلقي - قراءة تبلغ وتمتع، والاستفتاح في النصوص الترسلية ظلّ متعدداً، متحركاً.»⁽³¹⁾، ويلاحظ أنّ الاستفتاحات تنوعت وتعدّدت في أدب الرسائل حسب ما يثبته أحدهم «... ونظرت في الاستفتاح فوجدته يختلف باختلاف الأزمان.»⁽³²⁾

نجد أديبنا الشيخ الإبراهيمي في كل رسالة من الرسائل التي ندرسها في هذه الورقة البحثية يبدأها بمقدمة خاصة حسب المرسل إليه، ففي رسالته إلى السيد الأستاذ إبراهيم الكتاني «الذي كان شديد الإعجاب بالحركة الإصلاحية في الجزائر فكان لا يزال يتحدث عنها بتقدير وإعجاب لطلابه بجامعة الرباط : يُراعُ للحالة التي كان الجزائريون عليها فبالعقد الرابع من القرن العشرين (وقد ازداد الجزائري عام خمسة وثلاثين وتسعمائة وألف) حين يقول: " شاهدت من تعاسة المسلمين ودينهم ولغتهم ما لم أكن أتصوّر أنّ الحالة وصلت إلى معشاره: جهل باللغة العربية فظيع، وطُمس لمعالم الدين شنيع " ... »⁽³³⁾ يبدأها بدعاء للمرسل إليه هذه -أطال الله بقاء أخي- ثمّ يخبره عن موضوع رسالته وزمن كتابة ما أرسل شهرا ناجر وهو اسم صفر في الجاهلية (تتجرر فيه الإبل أي تشرب فيه كثيراً) - و هو يرسل له مقطعا من فصل من ملحمة - ومضمون هذه الملحمة قائلاً: « اشتملت على أفانين من الجد والهزل، والشخت والجزل، و وسف الرخاء والأزل، والولاية والعزل، والنكت والغزل، ... »⁽³⁴⁾

وفي رسالته إلى الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة بمناسبة ذكرى وفاة أخيه وصديقه الشيخ الإمام ابن باديس، نجده يفتتحها بقوله: «أحيي بتحيات الله المباركة الطيبة أبنائي المهاجرين في سبيله، لا أخصُ بتحياتي من ينتسبون إلى وطن، أو تجمعهم جمعية؛ بل أعمّ من يظلمهم دين ويربطهم لسان، ويجمعهم جامع، أولئك كلهم أبنائي؛ يستونفي حبي لهم، وعطفي عليهم، وآمالي فيهم، أحادهم وجموعهم.»⁽³⁵⁾

أما رسالته الموجهة إلى سعادة وزير داخلية الجمهورية الفرنسية، وهي عبارة عن كتاب مفتوح نشر تباعا في جريدة النهضة التونسية بتاريخ 30 من أبريل عام 1947م، ثم بجريدة الإصلاح في عددها الثامن والأربعين بتاريخ 8 من مايو عام 1947م فإننا نجده يفتتحها بالنداء «يا سعادة الوزير» وتدخل هذه الرسائل ضمن ما يعرف بالرسائل الديوانية، يوجهها إلى الوزير الفرنسي للداخلية بعد زيارته لبلادنا راجيا أن تكون هذه الزيارة تمهيدا لإصلاح سياسي واقتصادي واجتماعي في صالح الجزائريين.

أما رسالته الموجهة إلى الأديب والمؤرخ الجزائري المرحوم أحمد توفيق المدني فقد كان افتتاحها بعبارات الثناء والتبجيل والاحترام للرجل، واسمع إليه يقول في مستهلها: «حضرة الأديب الفاضل الأستاذ أحمد توفيق المدني أسعده الله، سلام عليكم وتحيات مباركات.»⁽³⁶⁾

بنية المضامين في رسائل الشيخ الإبراهيمي:

بعد الاستفتاح يأتي مضمون الرسالة، وفيه ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من كتاباتهم - وبحسن تخلص - يدخلون إلى ما يريدون قوله، وغالبا ما يقع ذلك

بعبارة أمّا بعد، وهي وقفة بين الابتداء والشرع في موضوع الرسالة، وقد تتوّعت المضامين في الرسائل بشقيها - الديواني و الإخواني - وتطرّقت إلى مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، فكان كتاب الدواوين يكتبون بتولية القادة وعزلهم، وبتولية القضاة والأمراء، كما يكتبون بمناسبات النصر والتهنئة وغيرها من الموضوعات المختلفة، وكان الإخوان يتبادلون رسائل الشوق والاعتذار والتهنئة بالمناسبات المختلفة - الزواج، المولود الجديد التعزية الشكر والدعوة لحضور مناسبة ... إلخ -

أما مضمون الرسائل التي كتبها الشيخ الإبراهيمي فقد تباينت هي الأخرى باعتبار أنها لم تكن موجهة إلى شخص واحد، أو أشخاص يجتمعون في نفس الصفات، فنجد في رسالته إلى الأستاذ الكتاني يجعل محور رسالته يتضمن خبرا يمكنه وصفه بأنه علمي فقد كان بصدد إخباره عن إرساله لقطعة من ملحمة طويلة نظمها في شهر الصيف يستخدم فيها أسلوبه الساخر اللاذع الذي عرف واشتهر به، ونراه يستعمل عبارات جميلة يستعرض بعدها معرفته بفن الملحمة في تاريخ الأدب العربي مخبرا مراسله أن ملحمة إن طالّت لتكوننّ من أكبر الملاحم في الأدب العربي، ثم مذكرا له أنه على اطلاع بما كتب من ملاحم معجب بما جاء فيها بدءاً من أبان بن عبد الحميد وأرجوزته في الأمثال والحكم و اختيار كتاب الملاحم لبحر الرجز الذي يعده المعري من سفاسف القريض مستعذبا رجز ابن الخطيب مطربا على رجز الشناقطة، وفي هذا الكلام دلالة على أن الشيخ الإبراهيمي له اطلاع واسع على تاريخ الرجز في الأدب العربي منذ عصوره المتقدمة.

وفي رسالته للأستاذ الكتاني إخبار عما كان يحاول فعله وهو في المنفى بمدينة آفلو أن ينظم تاريخ الإسلام، وأنه نظم في دخول الإسلام إفريقية وبناء

القيروان وموت عقبة بن نافع الفهري... إلخ إلا أن قريحته جمدت بعد عيد الفطر فلم يكتب بيتاً واحداً.

أما رسالته الموجهة إلى الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة فقد تضمنت بعد افتتاحيتها دعاءً للعلماء والأبناء -الطلبة - بالبقاء ذخراً للوطن والعربية والأمة، وبطول العمر، ثم يبين أهمية الدين واللغة في إذابة القيود وإزالة الحدود بين الأوطان العربية والإسلامية، موضحاً أن أخوة الإسلام والعروبة لا تقوم على الأقوال بقدر ما تقوم على الأفعال والحقائق. ولو أوتيت الأمة رشدًا لبنت العلاقات فيما بينها على كلمتي: المسلم العربي بدل الأنساب والأعراق في البلدان والقبائل لأنها مداخل وتغر لشيطان الوطنيات الضيقة، ولا يخفى ما كان من احتلال للأوطان العربية والإسلامية بسبب سياسة فرق تَسُدُ التي بفعلها استطاع الغرب احتلال الدول العربية والإسلامية والسيطرة عليها بسهولة تامة.

ثم نراه يعرج على موضوع الرسالة وهي إحياء ذكرى رفيق دربه في الإصلاح وكفاح العلم والقلم، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فهو في نظره صاحب فضل ومنة على الجميع؛ ممن يحملون روحاً جديدةً أو فكرة سديدةً، من طلاب العلم ومن غيرهم من أبناء الجزائر، ويدعوهم إلى نهج نهجه في التفكير وطرائق الإصلاح، والتعاون على إنهاء ما بدأه، والمشاركة في إحياء ذكره بنشر أعماله للعبرة، معتبراً فعل ذلك من سمات الوفاء لهذا المصلح العظيم .

وقد اعتبر إحياء ذكرى الإمام بتونس تحمل لطائف و مغازي ورقائق هي من آثار الروحية والوجدان والضمير إلى جانب الصلة الزيتونية الوثيقة التي يرتبط بها الجميع.

أما كتابه المفتوح إلى وزير داخلية الجمهورية الفرنسية فإن افتتاحيته اقتصرت على نداء موجه إلى الوزير ليدخل الشيخ البشير الإبراهيمي مباشرة في صلب الموضوع معبراً على لسان الجزائريين عن آمانيهم وآمالهم في ما يترتب عن هذه الزيارة التي يأمل منها الشعب الجزائري الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لكن التفاتة بسيطة إلى الماضي والنظر من خلاله إلى تلك الزيارات الوزارية المتعاقبة إلى أرض الجزائر تجعل تفاؤل الأمة يهبط إلى حد بعيد إلا أن خطابات الوزير الأخيرة أعادت الأمل لنفوس الجزائريين لتغيير وضعهم السيء، و من خلال هذا الكتاب يبين للوزير ما كان يعلق الشعب على هذه الزيارة من آمال وتمنيات أن تكون زيارة فيها الاستجابة للصرخات المنبعثة من أعماق النفوس التوّاقة إلى تحقيق الرغائب و أخذ الحقوق ،وفي الفقرة الثالثة من الرسالة نرى الشيخ الإبراهيمي يتمنى التوفيق للوزير الفرنسي وأن يقرن اسمه بحل القضية الجزائرية، و لا ينسى الشيخ الإشارة إلى قضية هامة كانت في تلك الفترة تؤرق الجزائريين وهي دينهم الذي هضمت أوقافه، وظلمت معابده، وأعدمت تعاليمه، وشوّه قضاؤه، ولم يشر الوزير في تصريحاته إلى هذه القضية فينتهز الشيخ الإبراهيمي الفرصة و يبلغ بها الوزير علها تجد عنده الحل. ويؤكد من خلال كتابه على أن حقّ الأمة الجزائرية الديني ينبغي ألا يكون محل ملاحظة و مجادلة لأنه لا يتعارض مع مصالح أي دين آخر ،منح قها أن تطالب بفصل دينها عن الحكومة فصلا رسميا عاجلا وتعود بذلك للأمة أوقافها ومساجدها ويعود معها حق التصرف فيه تصرفا حقيقيا مباشراً وترفع القيود الإدارية عن تعليمها الديني و تتمتع في أحوالها الشخصية بقضاء مستمد من الدين الإسلامي.

أما الرسالة الأخيرة في هذه الوريقات فهي موجهة إلى الأديب والمؤرخ أحمد توفيق المدني، وبعد التحية الافتتاحية يدخل الشيخ الإبراهيمي مباشرة في صلب موضوع الرسالة مخبراً المرسل إليه أنه أبلغ بواسطة الشيخ إبراهيم بيوض بالنسخة التي تحتوي على القانون الأساسي للمجلس الإسلامي الأعلى من أجل الاطلاع عليها وإبداء رأيه فيها، غير أن الشيخ الإبراهيمي يبادر مراسله بجملة من الاستفسارات حول القضية، رافضاً إبداء رأيه فيها قبل معرفة فحوى نص رسالة الوالي العام للرد على الشيخ الطيب العقبي حول هذه المسألة باعتباره عضواً في لجنة الإصلاحات العليا، ويتبع ذلك بجملة من الأسئلة مستفسراً من خلالها عن القانون المكتوب بخط الأديب والمؤرخ أحمد توفيق المدني وطرحه كمطلب على الحكومة وإمكانية رفضه أو قبوله أو تعديله أو هو نهائي لا رجوع للحكومة فيه ولا تدخل لها في تشكيله وتكييفه وتسييره مستقبلاً. ثم ما الضمانات المأخوذة على الحكومة إن كان القانون نهائياً. وأخيراً يخبر مراسله أنه تلقى رفقة الشيخ العربي التبسي رسالتين من الشيخ الطيب العقبي دعوة منه للحضور لاجتماع كأنه تمهيدي للمسألة وإجابتهما تتعلق بالاطلاع على رد الوالي العام ورده على سؤاله. وهي رسالة يبدو فيها حزم وشدة من الشيخ الإبراهيمي الذي كان يرأس جمعية العلماء المسلمين في تلك المرحلة خلفاً لصديقه وأخيه الشيخ عبد الحميد ابن باديس.

بنية الخواتيم:

خاتمة الرسالة هي آخر شيء فيها، وتكون في غالب الأحيان بلفظ "السلام" أو "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، وتكون مسبوقة بالدعاء، كما تشتمل كثير من الرسائل على التأريخ باليوم والشهر والسنة كعلامة على انتهاء الرسالة وإن

كانت بعض الرسائل تُورِّخُ في البداية ويتم التأريخ بما مضى من الشهر باعتباره معلوماً ، ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسن لأنه آخر ما يتبقى في الأسماع.⁽³⁷⁾

و إذا نظرنا إلى بنية خواتيم رسائل الشيخ الإبراهيمي موضوع هذه الوريقات فقد تنوعت هي الأخرى، واختلفت من رسالة إلى أخرى، فنجده يختم رسالته بأبيات يرسلها إلى الأستاذ إبراهيم الكتاني يبلغه من خلالها أنه إذا أعجبته الملحمة سيرسل له مع كل رسالة جزءاً منها وسيكون في فصول الشيطان ما يضحكه ويسليه.

وهذه الخاتمة الشعرية تتألف من ثلاثة مقاطع مجموع أبياتها سبعة وعشرون بيتاً ،أختار منها المقطع الأخير، وفيه ما يعبر عن حال الأمة اليوم أحسن تعبير، يقول:

ثُمَّ اسْتَغْنَوْا مِنْ بَنِيكَ بِثَبَاتٍ

لَيْسَ لَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْحَقِّ ثَبَاتٌ

اسْتَجْلَبُوهُمْ بِالْأَدِّهَا وَالْكَيِّدِ

وَاسْتَدْرَجُوهُمْ لِلزُّبَى كَالصَّيْدِ

اسْتَضَوْهُمْ عَفْوُهُمْ وَاسْتَخَفُّوا شَانَهُمْ

وَأَلْبَسُواهُمْ - ضَلَّاهُ - مَاشِيَانَهُمْ

وَسَحَرُوا أَعْيُنَهُمْ وَاسْتَرْهَبُوا

وَرَغَّبُوا بِعَاجِلٍ وَرَهَّبُوا

أما خاتمة رسالته إلى الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة في ذكرى الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس، نراه يوجه الشكر إلى إخوانه هناك، كما يرجو أن تتضافر الأيدي و تتوافر الهمم و تتعاون الألسنة و الأقلام خدمة لهذا الدين وتاريخه ولسانه، يقول: «أَيُّهَا الْإِخْوَانُ: أَشْكُرْكُمْ شُكْرًا تَنْقُلُ مَوَازِينَهُ، يُطَرِّزُهُ الْحُبُّ وَبُزْيَتُهُ بِرُكْمِ بَأَخِيكُمْ وَأَخِي، الَّذِي نَفِي بَعْدَهُ الثَّقِيلُ، وَأَرْجُو أَنْ تَتَضَافَرَ الْأَيْدِي وَتَتَوَافَرَ الهمم وَتَتَعَاضِدَ الْأَلْسِنَةُ وَالْأَقْلَامُ عَلَى خِدْمَةِ هَذَا الدِّينِ وَتَارِيخِهِ وَلسانه بهذا الوطن الذي هو قطعة من ملك الإسلام وَرُكْنٌ مِنْ حِصْنِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَشْمِ». (38) ولا ينسى في آخر رسالته توجيه التحية إلى تونس العزيزة عليه، الحبيبة على قلبه، ذاكرًا علاقاته بأبنائها التي تتجدد ولو بلي الزمن، ويعلن بصوت مرتفع - مستعملًا أسلوب الندبة - شوقه إلى تونس و إلى إخوانه من العلماء وأبنائه من الطلبة بجامع الزيتونة العامر، قائلاً: «وَا شَوْقَاهُ إِلَى تُونِسْ، وَوَا شَوْقَاهُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْخَيْرَةُ وَالْأَبْنَاءُ الْبَرَّة». (39)

أما رسالته التي وجَّهها إلى وزير الداخلية الفرنسي، فقد جاءت مغايرة لباقي الرسائل، وربما يعود ذلك إلى اعتبارها من الرسائل الدبلوماسية، كما أنها موجهة إلى شخص لا تربطه بكاتبها أية علاقة، إلا تلك العلاقة المفروضة على الكاتب فرضاً لا اختيار له فيه؛ فهو المُسْتَعْمَرُ (بكسر الميم) والكاتب هو المُسْتَعْمَرُ (بفتح

الميم) ،فنراه يختتما ببناء للوزير وطلب بلسان جمعية المسلمين الجزائريين التي يمثلها لأنه رئيسها ،يقول في ختام رسالته: « يا جناب الوزير: إذا سمعتم صيحات طلاب الحقوق السياسية و الاقتصادية فاسمعوا هذه الصيحة المنبعثة من طلاب الحقوق الدينية. وإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعبّر في هذا عن رأي كل مسلم جزائري . وهي تحمل - مع هذا -سعادتكم كل احترام وتقدير. »⁽⁴⁰⁾

أما آخر الرسائل في هذه الوريقات فقد امتازت بخاصية ميزتها عن باقي الرسائل من حيث الحجم،فإنها كانت أقصر الرسائل التي تناولناها، وظهر لي أنها كانت شديدة اللهجة نوعا ما ،واقترنت على المهم رغم أننا عرفنا الشيخ البشير الإبراهيمي في رسائله السابقة مفصلا لبعض جوانبها أحيانا ،مستقيضا بالشرح أحيين أخرى،وأرى أنها لم تنته كسابقاتها فقد سارع كاتبها إلى إنهاؤها بعبارة مقتضبة جاء فيها: «دمتم لأخيكم.»⁽⁴¹⁾

وفي ختام هذه الوريقات أسرد هذه الملاحظات حول الرسائل السابقة الذكر :

- أسلوب الرسائل جميل جدا يجعل القارئ يقبل على مطالعتها لما فيها من متعة وفائدة.

- الرسائل تؤرخ لفترة زمنية محددة من تاريخ الجزائر، أعقبت مجازر الثامن من ماي 1945م،وسبقت الثورة التحريرية المباركة.

- يلاحظ على أسلوب الرسائل أنه لم يخل من ألوان البيان و البديع،ومعروف عن الشيخ البشير الإبراهيمي انتمائه إلى مدرسة الصنعة،لما يملك من قوة بيان

وتحکم في ناصية اللّغة،فهي مطواعة لقلمه ولسانه.و يظهر في بعض الرسائل اهتمام الشيخ البشير الإبراهيمي بالبدیع،فنراه يستعمل السجع والطباق والمقابلة.

- ورد تأريخ الرسائل في الكتاب الذي جمع هذه الآثار،وخلت منه الرسائل .

- من ضمن الرسائل الأربعة التي تناولتها هذه الورقة البحثية؛رسالتان دون إمضاء من كاتبها،ورسالتان إحداها ممضاة باسم رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ الإبراهيمي، وهي الرسالة الموجهة إلى وزير داخلية الجمهورية الفرنسية،والثانية جاء في أسفلها عبارة « ودمتم لأخیکم محمد البشير الإبراهيمي» وهي الرسالة التي بعث بها الشيخ الإبراهيمي إلى الأديب المؤرخ أحمد توفيق المدني.

أخيرا،أقول إن تراث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تراث غني وكنز من كنوز الأدب الجزائري الحديث يجب أن يحظى بالجمع و البحث والدراسة ،وأن يُدرّس للأجيال حتى تبقى متشبثة بأصالتها،وأن تُعتمد نصوصه في المدرسة الجزائرية في مختلف أطوار التعليم من الابتدائي إلى الجامعي.

الإحالات والهوامش

- 1- محمد الأمين بليغث: " تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق " . دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع دراسات ووثائق ط/2009 . ص 111.
- 2- مخلوف عامر " مراجعات في الأدب الجزائري " . دار التنوير للنشر الجزائر ، ط 1 . 2012 ص 61.

- 3- محمد الامين بلغيت " تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق " . ص 137
نقلا عن محمد قنانش , المواقف السباسبية ، ص30.29.
- 4- مخلوف عامر "مراجعات في الأدب الجزائري" ص 62. ⁴
- 5- الطيب ولد العروسي "أعلام من الأدب الجزائري الحديث . دار الحكمة للنشر ، الجزائر ، ط 2009، ص52.
- 6- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي "محمد بن أبي شنب حياته وآثاره" المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983/ص:18.
- 7- مجلة المجمع العلمي العربي دمشق ، ج4 ، المجلد 10، نيسان سنة 1930، الموافق ذي القعدة 1348هـ، ص238.
- 8- محمد العيد آل خليفة " تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة" ، جمع وتقديم محمد بن يمينة دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط1/ 1997، ص95.
- 9- مجلة المجمع العلمي العربي دمشق م10 ج4، ص238.239.
- 10- خير الدين الزركلي "الأعلام قاموس وترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" (محمد، محمد) مج 6 دار العلم للملايين ط 9/ 1990ص: 266.
- 11- مجلة المجمع العلمي العربي دمشق م10 ج4، ص 239.
- 12- أبو عمران الشيخ وفريق من الأسانذة "معجم مشاهير المغاربة "منشورات دحلب ب د ط ص268.
- 13- خير الدين الزركلي "الأعلام قاموس وترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" ص: 267.
- 14- أبو القاسم "تاريخ الجزائر الثقافي" دار البصائر للنشر والتوزيع . الجزائر . ج8 / 2008ص172.
- 15- المرجع السابق، ص172.
- 16- عبد الرحمان الجيلالي " محمد بن أبي شنب حياته وآثاره " ص.: 91. ¹⁶
- 17- عبد الرحمان الجيلالي " محمد بن أبي شنب حياته وآثاره " ص91. ¹⁷
- 18- مجلة المقتطف المصرية العدد نوفمبر 1929 ص: 421. ¹⁸

- 19- مولود عويمر "أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر" دار الخلدونية للنشر والتوزيع "ط1، 2007، ص: 149 نقلا عن محمد كرد علي "المعاصرون" بيروت دار صادر ط1993 ص: 338
- 20- عبد السلام هارون "تحقيق النصوص ونشرها" دار النهضة العربية ط1. 2001 ص: 42.²⁰
- 21- المرجع السابق ص. 48.²¹
- 22- مولود عويمر "أعلام وقضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر" ص153.
- 23- عبد السلام قطوف أدبية ودراسات نقدية في التراث العربي، حول تحقيق التراث ، مكتبة السنة، الدار السلفية لنشر العلم "ط1. 1988 ص. 61.
- 24- أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج 8، ص
- 25- المقتطف المصرية العدد نوفمبر 1929 ص: 443.
- 26- جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، دار الهلال، د ت ، د ط، ص 309 وما بعدها بتصرف .
- 27- عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ / 1972م، ص 123.
- 28- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلد الثاني، دار المنار الإسلامي، ط2004، م، ص 149. بتصرف يسير .
- 29- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د ط، 1964م، ص 32.
- 30- محمود مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، مرجع سابق، ص 149 150.
- 31- آمنة الدهري، الترسل الأدبي بالمغرب النص والخطاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية المملكة المغربية، ط1424، هـ 1/ 2003م، ص 37.
- 32- نفسه، ص 37. نقلا عن الكلاعي من كتابه: إحكام صناعة الكلام.

-
- 33- عن موقع ستار تايمز، نقلا عن مجلة البيان العدد 13 .
<http://www.startimes.com/f.aspx?t=32507233>
- 34- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، ص 149. ط
- 35- نفسه، ص 152.
- 36- نفسه، ص 156.
- 37- يُنظر: محمد طاهر تاوويت، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص 391 وما بعدها.
- 38- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 153.
- 39- نفسه، ص 153.
- 40- نفسه، ص 155.
- 41- نفسه، ص 156.

